**الجرجاني مجلة علمية محكمة متخصصة في تأصيل البلاغة والنقد الأدبي**
**العدد الأول، السنة الأولى، صيف ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م؛ صص٢٥-٤٦**
تاريخ الوصول: ٢٠١٧/١٢/٢١؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/٤/٨

# معايير النصّ بين النقد العربيّ القديم والدراسات اللسانيّة المعاصرة

**كريم حسين ناصح الخالدي**[١]

**الملخّص**

يوازن البحث بين رؤية الغربيّين إلى تقويم النصّ التي لخّصها دي بوجراند بوضع سبعة معايير لتقويم النصّ وبين رؤية النقّاد العرب والمسلمين التي تثبت أن المعايير السبعة قد ناقش النقّاد القدماء أكثرها وفصّلوا القول فيها، ويعطي البحث أمثلة لهذا التوافق بين المعايير الغربيّة، وما درسه النقاد العرب والمسلمون في المفاهيم والمصطلحات نفسها. وقدّم البحث معايير لناقد عربي قديم هو حازم القرطاجنّي سبق أن عرض الباحث تطبيقات لها في كتابه فيضة النفس دراسة نصّية عربيّة في ضوء لسانيّات النصّ. وقدّم البحث تقويمًا للمعايير الغربيّة من خلال ما عرضه من أفكار للنقاد العرب والمسلمين، والبحث ينظر نظرات موضوعيّة في كل معيار من المعايير الغربيّة وعلاقته بالمعايير العربيّة القديمة التي وضعت لتقويم النصوص الشعريّة والنثرية وماز البحث بين النصوص التي بنيت عليها المعايير الغربيّة والنصوص التي بنيت عليها المعايير العربيّة، وبذلك يقدّم البحث محاولة عربيّة معاصرة في ميدان البحث اللسانيّ المعاصر لإثبات قدرة الباحثين العرب على مواكبة التطور البحثي في الدراسات اللسانيّة المعاصرة.

**المفردات الرئيسة:** معايير النص، النقد العربي القديم، الدراسات اللسانية المعاصرة.

---

١. أستاذ بجامعة بغداد ورئيس جمعية اللّسانيين العراقيّين – بغداد. kareemauthman@yahoo.com

**المقدّمة**

تكتسب دراسة النصّ أهميتها من كون النصّ هو الوحدة المعنويّة الكاملة، المعبّرة عن معنى مقصود، يريد المنشئ إيصال أثره إلى نفس المتلقي، وإبلاغه مراميه، أما الجملة فهي وإن كانت تامّة المعنى، وتفيد فائدة يحسن السكوت عليها؛ غير أنّها لاتبلغ مدى النصّ في التأثير؛ لما يحمله النصّ من مكوّنات عاطفيّة واجتماعيّة ونفسيّة ومقاميّة وسياسيّة ودينيّة، وغيرها ممّا يخامر تفكير المنشئ، ووجدانه وعقله وثقافته وتراثه، ويحفّزه على إيصال أفكاره، ومشاعره، ومراميه إلى المتلقي، مراعيًا حالاته الثقافيّة والنفسيّة والاجتماعيّة، والواقع الذي يعيشه، والمقام الذي يكون عليه، والدرجة المقاميّة التي وصل إليها في المجتمع؛ لذا يكون النصّ أكثر شموليّة من الجملة، وأكثر تأثيرًا في المتلقي، وأوسع مساحة في استيعاب ما تقدّم من المؤثرات، في كل من المنشئ والمتلقي؛ لأنّ النصّ الذي قد يكون قصيدة، أو خطبة، أو رسالة، أوحكمة، أو مقالة، أو غيرها من الفنون التعبيريّة، يستطيع نقل القدرات الفكريّة والتأثيريّة، والصور، والمجازات، والكنايات، والرموز التي يبدعها المنشئ بحسب مواهبه وإمكاناته الإبداعيّة وقدراته التأثيريّة، إلى المتلقي.

ولذا استأثر النصّ الأدبيّ باهتمام النقّاد منذ زمن مبكّر، في ضمن حركة النقد الأدبيّ وصار مدار بحثهم؛ لأنّه الوحدة الأساسيّة المراد تمييزها، وبحث عناصر جودتها، أو رداءتها، وقد وصل الأمر بهم الى التنقيب عن جمالية البيت الواحد، وجودته وشاعريته وتفرّده، من خلال البحث في (وحدة البيت) فكان البيت الشعريّ على قصره نصّا أدبيّا، وكانوا يقولون أفضل بيت قيل في الغزل، أو في المدح، أو في الهجاء، أو في الوصف، أوفي الفخر؛ لما يمتلكه البيت من مقوّمات النصّ لو عزلته عمّا قبله، وما بعده، وقدرته على الخضوع إلى معايير الجودة، والجمال، والرقي، واحتمال انطباقها عليه، كما تخضع القصيدة كلّها لمثل هذه المعايير. والتعريفات التي وردت للنصّ في الدراسات المعاصرة لا تعدو أن يكون النصّ مجموعة متواليات من الجمل.

وفي ضوء ما تقدّم يمكن الحكم بأن النقّاد العرب والمسلمين كانوا روّادًا في دراسة النصّ وتعيين حدوده، ومعايير جودته، أو رداءته، من خلال الموازنات التي أقاموها بين النصوص الأدبيّة، أو الموازنات بين الشعراء، من خلال نصوصهم الأدبيّة، ومن خلال المعايير النقديّة التي وضعوها للمفاضلة بين تلك النصوص، وهذا ما سألقي عليه الضوء في هذا البحث.

## معايير النصّ

### أ) معايير النصّ في لسانيّات النصّ المعاصرة

يحدّد كلاوس برينكر مرحلة ظهور الدراسات النصيّة بمنتصف الستينيات قائلاً: «ولم يبدأ نقد أساسيّ إلى ذلك الاقتصار، للبحث اللغويّ على مجالات الجملة إلاّ مع نشوء ما يسمّى بعلم لغة النصّ في منتصف الستينيّات، وساد النظر إلى أنّ (أعلى وحدة لغويّة وأشدّها استقلالاً) والعلامة اللغويّة الأساسيّة ليست الجملة؛ بل النصّ ولذلك يجب أن يتوجّه التحليل اللغويّ بشكل أقوى ممّا هو قائم حاليًا إلى النصّ» (برينكر، ٢٠٠٥: ٢٣) وقال فان دايك: «إنّ مفهوم علم النصّ ليس بالغ القدم، غير أنّه قد ترسّخ منذ عشر سنوات تقريبًا... ومع ذلك فقد عرفنا منذ زمن أبعد وبخاصة في الدراسات اللغويّة مصطلحي تحليل النصّ، وتفسير النصّ، حيث كانت العناية في الغالب موجّهة الى الوصف الماديّ للنصوص الأدبيّة بوجه خاصّ» (فان دايك، ٢٠٠٥: ١٤).

وقد كان فان دايك خالي الذهن من التراث النقديّ العربيّ والإسلاميّ الذي كان زاخراً بدراسات نصيّة شغلت العالم قرونا طويلة، درس فيها علماؤنا القدماء النصوص من وجوهها البنيويّة والقصديّة والمقاميّة وأثرها في نفوس المخاطبين وعلاقة بعضها مع بعض، فيما سمّي اليوم بـ (التناص) وأهمية البدء والختام في النصّ من حيث الوجوه البيانيّة والجماليّة فيه (انظر: لخالدي، ٢٠١٧: ٢١-٣٤).

والتأسيس لهذا المنهج عند الغربيّين في هذا التاريخ، يعدّ حديثًا إذا وازنّاه بالدراسات النقديّة العربيّة التي اعتمدت النصّ أساساً.

وأغلب تعريفات النصّ التي وردت في الدراسات النصيّة المعاصرة لا تعدو أن تكون "تتابعا متماسكًا من الجمل" (وارزنياك، ٢٠١٠: ٦٢) أو "نسيج يشبه نسيج العنكبوت" (رولان بارت، ١٩٩٢: ١٠٨-١٠٩).

وأهمّ ما شغل الباحثين المعاصرين والنقّاد المحدثين المعايير التي أسّس لها فان دايك وكريمس وهارفيج وباليك وبيليرت وغيرهم بوضع جزء منها أو الحديث عنها كلّها، وصقلها وأشاعها دي بوجراند الذي تولّى تفصيلها في كتابه (النصّ والخطاب والإجراء) ولخّصها بسبعة معايير أذكرها بتصرّف واختصار لطولها:

١. السبك[١] وهو يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحيّة[٢] على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق[٣] بحيث يتحقق لها الترابط الرصفيّ[٤] وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط. ووسائل التضامّ تشتمل على هيأة نحويّة للمركبات[٥] والتراكيب[٦] والجمل وعلى أمور مثل التكرار والألفاظ الكنائيّة[٧] والأدوات، والإحالة المشتركة[٨] والحذف والربط[٩].

٢. الالتحام[١٠] وهو يتطلب من الإجراءات ما تتنشّط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهوميّ[١١] واسترجاعه وتشتمل وسائل الالتحام على:

أ) العناصر المنطقية كالسببيّة والعموم والخصوص[١٢].

ب) معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.

ت) السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانيّة، ويتدعّم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النصّ[١٣] مع المعرفة السابقة بالعالم[١٤].

٣. القصد[١٥] وهو يتضمن موقف منشئ النصّ من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصّا يتمتّع بالسبك والالتحام وأنّ مثل هذا النصّ وسيلة[١٦] من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها، وهناك مدى متغّير للتغاضي[١٧] في مجال القصد حيث يظلّ القصد قائمًا من الناحية العملية حتى مع عدم وجود المعاييرالكاملة للسبك والالتحام.

---

1- Cohesion
2- Surface
3- Progressive occurrence
4- Sequential connectivity
5- Phrases
6- Claus
7- Pro-forms
8- Co-reference
9- Junctions
10- Coherence
11- Conceptual connectivity
12- Class inclusion
13- Text presented knowledge
14- Prior knowledge of the world
15- Intentionality
16- Instrument
17- Tolerance

٤. القبول[١] وهو يتضمن موقف مستقبل النصّ إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نصّ ذو سبك والتحام.

٥. رعاية الموقف[٢] وهي تتضمن العوامل التي تجعل النصّ مرتبطًا بموقف سائد يمكن استرجاعه ويأتي النصّ في صورة عمل يمكن له أنْ يراقب الموقف وأنْ يغيّره.

٦. التناصّ[٣] وهو يتضمن العلاقات بين نصّ ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بوساطة أم بغير وساطة.

٧. الإعلاميّة[٤] وهي العامل المؤثر لعدم الجزم[٥] في الحكم على الوقائع النصيّة، أو الوقائع في عالم نصيّ[٦] في مقابل البدائل الممكنة، فالإعلاميّة تكون الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكلّ نصّ إعلاميّة صغرى في الأقل، تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع[٧] (بوجراند، ١٩٩٨: ١٠٣-١٠٥). وقد كان لي نظر في هذه المعايير إذ رددت عدداً منها إلى الموروث النقديّ العربيّ والإسلامي، وبيّنت رأيي في المعايير الأخرى (انظر: الخالدي، ٢٠١٧: ٢١-٣٤).

وسأحاول في المبحث القادم إيجاد المقاربات بين معايير دي بوجراند وما أسّسه النقّاد العرب والمسلمون في مباحثهم النقديّة والبلاغيّة.

**ب) معايير النصّ عند النقّاد العرب والمسلمين القدماء**

من يتأمّل في الدراسات النقديّة القديمة يجد أنّ أكثرها قد نظرت في عدد من تلك المعايير التي وضعها علماء الغرب بل كان ما ورد عنهم أكثر وأعمق من هذه المعايير الغربيّة، والسبب يكمن في نظرة الطرفين إلى ماهيّة النصّ، ونوعه، وأثره فقد كان النقاد العرب والمسلمون يدرسون النصّ الفصيح، والبليغ، والمؤثّر في ضوء بنائه، وبلاغته، وقدمه، وحداثته، وألفاظه، ومعانيه، وصوره، في حين لايقف النصّ الذي وضعت بموجبه معايير بوجراند على النصّ البليغ؛ بل يخلط معه نصوص الدعاية، والإعلانات التجاريّة والرياضيّة والفنيّة، والخطب السياسيّة التي تلقى في الدعاية الانتخابيّة، والنصوص التي ترد في المسرحيات، أو الحكايات الشعبيّة، وأكثر

1- Acceptability
2- Situationality
3- Intertextuality
4- Informativity
5- Uncertainty
6- Textual
7- Non-occurvences

هذه النصوص الغربيّة لا تتوخى الفصاحة، بقدر رغبة منشئها في إيصال مقاصده التي تكون في أكثر الأحيان نفعيّة (براكماتيّة)، ولتأكيد ذلك أذكر أقسام النصّ بحسب وظائفها كما ذكرها الغربيّون أنفسهم:

- نصوص إبلاغيّة (خبر، تقرير، كتاب متخصّص، نقد...)
- نصوص استجابة (إعلان، دعاية، تعليق ، قانون، طلب...)
- نصوص التزام (عقد، شهادة، ضمان، عهد...)
- نصوص اتصال (شكر، خطاب، تعزية، بطاقة مصوّرة...)
- نصوص إعلان (وصيّة، مستند، تعيين...) (برينكر، ٢٠٠٥: ١٧٤)

وباختلاف الغايتين في النصوص العربيّة، والغربيّة، اختلفت معايير الجودة؛ لذا نجد عددًا من المعايير التي أوردها دي بوجراند قد شغلت العلماء العرب والمسلمين في القرون الهجريّة الثالث والرابع والخامس وما تلاها من قرون، في حين نظروا في المعايير الأخرى عرضًا في مباحثهم النقديّة والبلاغيّة. ومن المعايير التي بحث فيها وصاغها العلماء العرب والمسلمون:

### ١. السبك عند النقّد العرب والمسلمين

وهو (النسج) و(النظم) و(الائتلاف) وغيرها من المصطلحات التي تعبّر عن قدرة المنشئ على بناء نصّه، بناءً محكمًا متراصّا، يعضد بعضه بعضًا، وهوما سمّاه بوجراند (الترابط الرصفيّ) وقد كان لنا حديث في أكثر من كتاب عن أهميّة هذا المعيارفي جودة النصّ، ولاسيّما النصّ القرآنيّ، فقد قال المبرّد "إنّ حقّ البلاغة القولُ بالمعنى، واختيارُ الكلام، وحسنُ النظم، حتى تكون الكلمُ مقاربة أختَها، ومعاضدةً شكلها، وأنْ يقرّب بها البعيد، ويُحذف منها الفضول" (المبرّد، لا تا: ٥٩). وجعله أبوهلال العسكريّ معياراً بقوله. «وحسنُ الرصف أنْ توضع الألفاظ في مواضعها، وتُمكّن في أماكنها، ولا يُستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذفُ والزيادة، إلاّ حذفاً لا يُفسد الكلام، ولايُعمّي المعنى، وتُضمّ كلّ لفظة منها إلى شكْلها، وتُضاف إلى لفَقِها، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفُها عن وجوهها، وتغييرُ صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها» (العسكري، ١٩٥٩: ١٦١). لوتأملت في نصّ بوجراند عن السبك لوجدت أن ما قاله أبوهلال العسكري قد فاق ما ذهب إليه بوجراند من حيث التوصيف، والتمييز بين النصّ المسبوك، والنصّ غير المسبوك وعندي أنّ عبد القاهر الجرجانيّ قد بلغ الغاية القصوى، في الحديث عن السبك الذي نفهمه من حديثه عن (النظم) فقد ربط النظم بعلاقة مهمّة بين الألفاظ المؤلّفة للنصّ هي التعليق قال: «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض» (الجرجاني، ١٩٩٢: مقدّمة المؤلف).

كما ربطه بمعاني النحو في قوله: «اعلمْ أنْ ليس (النظم) إلاّ أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو) وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها» (المصدر نفسه: ٨١).

وكان العلماء الآخرون يعدّون جودة النسج أو السبك معيارًا للتمييز بين الشعر رديء النسج، ومحكم النسج، على نحو ما نراه عند ابن طباطبا العلوي في عيارالشعر (ابن طباطبا، ٢٠٠٥: ١٠٥، ١٠٩) وأبي القاسم الآمدي في موازنته بين الطائيّين الذي عدّ النسج السيّء المعقّد من معايب النصّ الشعري (الأمدي، ١٩٤٤: ٢٥٨).

**٢. الالتحام (الانسجام) عند النقّاد العرب والمسلمين**

وهو الشقّ الآخر من النظم الذي يهتمّ بترابط المعاني، والأفكار، وانسجامها. والالتحام مصطلح عرضه الدكتور تمّام حسّان في ترجمته كتاب النصّ والخطاب والإجراء وسمّاه محمد خطّابي (الانسجام) وسمّاه محمد فتّاح (التشاكل)، وسمّاه سعد مصلوح ومحمد العبد (الحبك) مصطلحات متقاربة في التعبيرعن المصطلح الإنجليزي Coherence ويعني ارتباط معاني الجمل واستمرارها الدلاليّ، وإيجاد الترابط المعنويّ، وهذا ما ذهب إليه فان دايك في قوله عن هذا المعيار «إنّ العلاقات بين الجمل في الجمل المركبة، والتتابعات، هي بوجه خاص ذات طبيعة دلاليّة، وتكون العلاقات النحويّة تابعة لها أحياناً، فالأمر يتعلّق في المقام الأول بوصف العلاقات بين معاني الجمل، وتحديد معنى التتابعات (الجزئيّة)» (فان دايك، ٢٠٠٥: ٤٨).

ولا شكّ في أنّ العلماء العرب والمسلمين قد أولوا المعاني وترابطها، وانسجامها، أهميّة كبرى، في معاييرهم النقديّة، قال قُدامة بن جعفر: «وعلى الشاعر في أيّ معنى كان، من الرفعة، والضعة، والرفث، والنزاهة، والبذخ، والقناعة، والمدح، وغير ذلك من المعاني الحميدة، والذميمة: أنْ يتوخّى بلوغ الغاية من التجويد في ذلك إلى النهاية المطلوبة» (قدامة بن جعفر، ١٩٦٣: ١٨). وقال الآمديّ في موازنته بين الطائيّين البحتريّ وأبي تمّام: «كمن فضّل البحتري، ونسبه إلى حلاوة اللفظ، وحسن التخلّص ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأتى، وانكشاف المعاني، وهم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة» (الأمدي، ١٩٤٤: ١٠). ومن أمثلة الإفادة من معيار المعاني وصحتها وترابطها قول الآمدي في تخطئة أبي تمّام قال: «ومن خطئه قوله:

ظعنُـوا فكـان بكـايَ حـولاً بعـدهم ... ثمّ ارعويـتُ وذاك حكـمُ لبيـدِ

أجـدِرْ بجمـرةِ لوعـةٍ إطفاؤهـا ... بالـدمعِ أنْ تـزدادَ طـولَ وقـودِ

وهذا خلاف ما عليه العرب وضدّ ما يعرف من معانيها؛ لأنّ المعلوم من شأن الدمع أنْ يطفئ الغليل، ويبرد حرارة الحزن، ويزيل شدة الوجد، ويُعقب الراحة، وهو في أشعارهم كثير موجود، يُنحى به هذا النحو في المعنى فمن ذلك قول امرئ القيس:

وإنّ شفائي عَبرةٌ مُهراقةٌ فهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعوّل

وقول ذي الرمّة:

لعلّ انحدارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً من الوجدِ أن يشفى نجيَّ البلابلِ»

(المصدر نفسه: ١٨٦-١٨٧)

ومن معايير ابن طباطبا العلوي في الشعر براعة المعنى في المعرض الحسن؛ قال: «فأمّا المعنى الصحيح البارع الحسن، الذي قد أبرز في أحسن معرض، وأبهى كسوة، وأرقّ لفظ، فقول مسلم بن الوليد الأنصاريّ:

وإنّي وإسماعيل بعد فراقِه لكالغمدِ يوم الروع زايله النصلُ

فإنْ أغشَ قومًا بعده أو أزورُهم فكالوحشِ يُدنيها من الإنس المحلُ»

(ابن طباطبا، ٢٠٠٥: ٩٢)

وقال في تنسيق المعاني والمباني، في النصّ الشعري؛ ليكون ذا درجة عالية من الجودة: «وينبغي للشاعر أن يتأمّل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها، أو قبحه، فيلائم بينها؛ لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه، وبين تمامه فضلاً من حشو، ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه» *(المصدر نفسه: ١٢٩)*.

٣. القصد عند النقّاد العرب والمسلمين: القصدُ هو الغاية أو المعنى المراد، ولقد كانت دراسات الغربيين لهذا المعيار سطحيّة، باهتة في حين كان القصد عند الأصوليّين، والنحويّين والبلاغيّين والنقّاد، هو الأساس في التعبير، وبناء النصّ والتفاهم بين المنشئ والمخاطب. قال القاضي عبد الجبار: «وإنّما يجب بيانه إذا لم يكن المعلوم من حالة المخاطب أنّه يعرف الغرض، ويحمل الكلام على الوجه المراد، فأمّا إذا علم ذلك من حاله، استغنى عن بيان تقيّده معرفة المخاطب بالمخاطب، في حكم وقوع البيان منه، وكذلك لو اضطر إلى قصده لأغنى ذلك عن البيان؛ لأنّ ذلك آكد في بابه من البيان» (القاضي عبد الجبار، لا تا: ٥/١٩٤).

وقد أوضح القاضي عبد الجبار ارتباط القصد بكلّ من المتكلّم والمخاطب لحاجة المتكلم إلى التأثير في المخاطب، وتلبية ما يقصده، فقال عن قصد المتكلّم: «إنّما أعتبر حال المتكلم لأنّه لو تكلّم به من غير قصد لم يدلّ، فإذا تكلّم به وقصد وجه المواضعة فلابدّ من كونه دالاً، إذا علم من حاله أنّه يبيّن مقاصده» *(المصدر نفسه، لا تا: ١٦/١٤٩)*.

أمّا المخاطب فهو العنصر الآخرفي التواصل؛ الذي إنّما يتوجّه إليه المتكلّم ليوصل إليه مقاصده، من أوامر، ونواهٍ، ومدح، وذمٍ، ورجاء، والتماس، وغيرها من أغراض لذا قال القاضي عبد الجبار: "إنّ المكلم لغيره إنّما يحصل مكلمًا له، بأن يقصده بالكلام دون غيره، ويكون آمرًا له، متى قصده بالكلام، وأراد منه المأموربه *(المصدر نفسه، لا تا: ٧/٧٠)*.

وأوجز عبد القاهر الجرجانيّ أهمية القصد في النصّ بقوله: «لا يخفى على من له أدنى تمييز أنّ الأغراض التي تكون للناس في ذلك، لاتعرف من الألفاظ؛ ولكنْ تكون المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلّة على الأغراض والمقاصد... فلو قلنا في قول النبي ﷺ (إيّاكم وخضراء الدِمن) إنّه ضرب عليه السلام (خضراء الدمن) مثلاً للمرأة الحسناء في منبت السوء، لم يكن المعنى أنّه ﷺ ضرب لفظ (خضراء الدمن) مثلاً لها، هذا ما لا يظنّه مَن به مسّ، فضلاً عن العاقل. فقد زال الشكّ، وارتفع، في أنّ طريق العلم بما يُراد إثباته، والخبر به في هذه الأجناس الثلاثة؛ التي هي الكناية، والاستعارة، والتمثيل، المعقول دون اللفظ، من حيث يكون القصد بالإثبات فيها، إلى معنى ليس هو معنى اللفظ، ولكنّه معنى يُستدلّ بمعنى اللفظ عليه، ويستنبط منه، كنحو ما ترى من أنّ القصد في قولهم (هو كثيرُ رمادِ القدرِ) إلى كثرة القِرى، وأنت لاتعرف ذلك من هذا اللفظ الذي تسمعه، ولكنّك تعرفه بأن تستدلّ عليه بمعناه» (الجرجاني، ١٩٩٢: ٤٤١-٤٤٢).

فالقصد هو الغاية الأساسيّة من التواصل الكلامي، ناقشه العلماء المسلمون منذ بَدء التفكير الدلاليّ عندهم؛ الذي فرضه القرآن الكريم على من له عقل يفكّر به، ولبّ يتدبّر به، ثم تطوّرت دلالته فدخل في علوم مختلفة كالنحو والنقد فصار يستعمل له مصطلح (الفائدة)، أو (المعنى المقصود).

وأعتقد أن معايير (القبول)، و(رعاية الموقف)، و(التناصّ) كانت من المفاهيم المتداولة بين النقاد العرب، والمسلمين، فالنصّ لايكون متميّزاً ما لم يكن سائغًا ورائقاً عند المخاطب، وليس مقبولاً فقط؛ لأنّ المقبوليّة تمثّل أدنى درجات تقويم النصوص البليغة المتميّزة، وكان الناقد هو السامع المتأمّل؛ الذي يمتلك الحسّ النقديّ، للتمييز بين النصوص، ويمتلك الثقافة اللغويّة، والدلاليّة، والعروضيّة، واللغويّة، والبلاغيّة التي تمكّنه من الحكم على النصّ، ليس بالقبول والرفض فقط، كما أراد دي بوجراند؛ بل كان الناقد العربيّ يمتلك القدرة على التمييز بين درجات الجودة، والحُسن، والجمال وقوة التأثير، ودرجات الرداءة، والقبح، وقلّة التأثير.

ولا أريد الاستغراق في الحديث عن رعاية الموقف أو (المقام) أو الحال عند البلاغيّين والنقّاد، فهو أشهر من أنّ أصفه، أو أبيّن أهميته، في دقّة إيصال المعنى المقصود إلى المخاطب، بنصّه المؤثّر الذي يوظّف الحال، أوالمقام، لنقل الصورة، أو المعنى المراد إيصالهما، ويكفي أنّهم قالوا لكلّ مقامٍ مقال، ويظهر ذلك جليّا في حكمهم على

الصور والتشبيهات، ومدى مطابقتها للواقع، وقد ذكر الامديّ أنّ واقع الحال هو الحكم الفيصل بين جودة الوصف، أو رداءته قال: "فأمّا ما عبتم به البحتري من قوله:

يُخفـــي الزجاجـــةَ لونُهـــا فكأنّهـــا ... في الكـــفِّ قائمـــةٌ بغـــير إنـــاء

فما زالت الرواة، وشيوخ أهل الأدب، والعلم، يستحسنون هذا البيت، ويستجيدونه له ، وذكره عبد الله بن المعتز بالله، وقد علمتم فضله، وعلمه بالشعر، في باب ما اختاره من التشبيه، في كتابه الذي نسبه إلى البديع، ولكنكم أبيتم إلاّ إفساده، ثم أجلبتم، وأكثرتم أنْ تنعوا على شاعر محسن بيتًا واحدًا... فإنّما قصد إلى وصف هيأة الشراب في الإناء، ولم يقصد إلى وصف الشراب خاصة، ولا إلى الإناء، كما ادعيتم، ولو أراد وصف الإناء لكان مصيبًا، لأنّ الزجاجة أيضًا يوصف ما فيها، وتقع المبالغة في نعتها، وقد جاء في وصف أواني الشراب ما جاء، ومِن أحسن ما قيل في ذلك قول علي بن العبّاس بن جُريح الرومي يصف قدحًا:

تنفُـــذُ العـــينُ فيـــه حـــتى تراهـــا ... أخطأتـــه مـــن رقّـــة المستَشَـــفّ
كهـــواءٍ بـــلا هَبَـــاء مشـــوبٍ ... بضـــياء أرقّـــق بـــذاك وأصـــفِ
وسَـــط القَـــدْر: لم يُكـــبّر لجـــرْعٍ ... متـــوالٍ، ولم يُصـــغّر لرشـــفِ
لاعَجـــول علـــى العقـــولِ جهـــول ... بـــل حلـــيم عـــنهنّ مـــن غـــير ضـــعفِ

فالزجاجة إذا رقّت وصَفَت وسلِمتْ من الكَدر، اشتدّ صفاؤها، وبريقُها، فإذا وقع فيها الشراب الرقيق، اتصّل الشعاعان، وامتزج الضوءان، فلم تكد الزجاجة تتبين للناظر ولو صببنا دبساً، أوعسلاً، أولبناً، أو ماءً كَدِراً في إناءٍ هذه صفتُه في الرقّة، لما خفي الإناء على الناظر؛ لأنّ هذه الأشياء لا شعاع لها، ولا ضياء يتصل بشعاع الإناء، وضوئه" (الأمدي، ١٩٤٤: ٣١-٣٣).

وممّا اعتمدوه من رعاية الواقع في نقدهم، ما آخذ به الأصمعيّ امرأ القيس لوصفه الفرس بما هو معيب في المجتمع في قوله:

وأركـــــبُ في الـــــروع خيفانـــــةً ... كســـا وجهَهـــا ســـعفٌ منتشـــرُ

"وقال: شبّه شعر الناصية بسعف النخلة، والشعَر إذا غطّى العين لم يكن الفرس كريمًا وذلك هو الغَمَم، والذي يحمدُ من الناصية الجثْلة، وهي التي لم تفرط في الكثرة فتكون الفرس غمّاء، والغمم مكروه" *(المصدر نفسه، ٣٥)*.

وقد كان النحويّون حاذقين في الإفادة من (رعاية الموقف) وهو ما ذكرته في أكثر من موضع من كتبي، وأجتزئ بذكر

مثل من كتاب سيبويه، يسوّغ فيه اضمار الفعل والفاعل، والاكتفاء بالمفعول به، في جملة تامة المعنى، في ضوء ما يعرضه من مشهد، يمثّل المقام، كقوله في باب ما جرى من الأمر والنهي، على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، إذا علمت أنّ الرجلَ مستغنٍ عن لفظك بالفعل "وذلك قولك زيدًا وعمرًا، ورأسَه، وذلك أنّك رأيتَ رجلاً يضربُ، أو يشتم، أو يقتلُ، فاكتفيتَ بما هو فيه من عمله، أنْ تلفظله بعمله، فقلتَ: زيداً، أي أوقع عملك بزيد، أو رأيت رجلاً يقول: أضربُ شرّ الناس، فقلتَ: زيداً. أو رأيتَ رجلاً يحدّثُ حديثًا، فقطعه، فقلتَ: حديثَك.. استغنيتَ عن الفعل بعلمه أنّه مستخبَر، فعلى هذا يجوز هذا، وما أشبهه" (سيبويه، ١٩٩٧: ٢٥٣/١).

أمّا (التناصّ) فهو مصطلح حديث ورد في ضمن معايير دي بوجراند، وهو أخفّ حدّة من مصطلح (السرقات الأدبيّة) الذي كان شائعاً في الدراسات العربيّة النقديّة، وكان معيارًا يعيبون به الشاعر المحدَث، على أخذه معاني استعملها شعراء جاهليّون أو أمويّون بألفاظها، أوبمعانيها، وأعاد صياغتها في شعره. وقد كانت السرقات أحد العيوب التي آخذ بها الآمديّ الشاعر أبا تمّام حتى قال عنه "إنّ الذي خفي من سرقاته أكثر ممّا قام منها، وأنا أذكر ما وقع إلى في كتب الناس من سرقاته، وما استنبطته أنا منها، واستخرجته، فإن ظهرتُ بعد ذلك منها على شيء ألحقته بها (الأمدي، ١٩٤٤: ٥٢).

ومن تلك السرقات قول أبي تمّام الطائيّ وقد ذكرضوء النهار، وظلمة الدخان، في الحريق الذي وصفه:

ضـــوءٌ مـــنَ النـــار والظلمـــاءُ عاكفـــةٌ وظلمـــةٌ مـــن دخـــانٍ في ضـــحًى شـــحِبِ
فالشـــمسُ طالعـــةٌ مِـــن ذا، وقـــد أفَلَـــتْ والشـــمسُ واجبـــةٌ مِـــن ذا، ولم تجـــبِ

وهذا المعنى أخذه من قول النابغة الذي يصف فيه يوم الحرب:

تبـــدو كواكبُـــه والشـــمسُ طالعـــةٌ لا النـــورُ نـــورٌ ولا الإظـــلامُ إظـــلامٌ

*(المصدر نفسه: ٥٣)*

والحكمة في إطلاق مصطلح (التناصّ) عند المعاصرين تكمن في اطّلاع أحد المنشئين على نصّ لمنشئ آخر، وأخذ الفكرة، أوالمعنى، وإعادة صياغة المعنى المأخوذ من المنشئ السابق، وكان النقّاد القدماء يميزون بين من يأخذ اللفظ والمعنى حرفيّا، ومن يأخذ المعنى كما هو، ومن يأخذ المعنى ويغيّر فيه، فهم يضعون موازين للتناصّ.

وفكرة التناصّ هذه كان النقاد العرب يتحدثون عنها في كتبهم؛ فقد ذكرالآمديّ هذا المفهوم للتناصّ في تسويغه لسرقات أبي تمّام قائلاً: "كان أبو تمّام مشتهراً بالشعر، مشغوفًا به، مشغولاً مدة عمره بتخيّره ودراسته، وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة؛ فمنها: الاختيار القبائلي الأكبر... ومنها اختيار آخر ترجمته القبائليّ، اختار فيه

قطعًا من محاسن أشعار القبائل، ولم يورد فيه كبير شيء للمشهورين؛ ومنها الاختيار الذي تلقّط فيه محاسن شعر الجاهليّة، والإسلام وأخذ من كلّ قصيدة شيئًا، حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرْمَة، وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول... وهذه الاختيارات تدلّ على عنايته بالشعر، وأنّه اشتغل به، وجعله وُكْده، واقتصر من كلّ الآداب والعلوم عليه، فإنّه ما شيء كبير من شعر جاهليّ ولا إسلاميّ ولا محدثٍ إلاّ قرأه واطّلع عليه، ولهذا أقول: «إنّ الذي خفي من سرقاته أكثر ممّا قام منها على كثرتها» *(المصدر نفسه: ٥٢)*.

فأبو تمّام كان قداطّلع على شعر الشعراء الذين جمع أشعارهم، في اختياراته المشهورة ودرس معانيها، واقتبس منها ما شاء، فكان النصّ الآخر المسروق قريباً في المعنى من النصّ الأول، على نحو ما يقصده دي بوجراند في حديثه عن (التناصّ) بوصفه معيارًا من معايير النصّ.

أمّا المعيار السابع وهو الإعلاميّة، فأعتقد أنّ الدكتور تمّام حسّان لم يُوفّق في ترجمته للمصطلح الإنكليزيّ بإعطائه معنى الإعلاميّة، وهو يتحدّث عن نصّ فيه إخبار متوقع، ويحتمل أن يكون له إخبار لا يتوقعه السامع، وهو على درجات.

وقد أوضحت رأيي في هذا المعيار في أحد كتبي حيث قلتُ: "ولنا في معيار الإعلاميّة نظر؛ فتسميته بالإعلاميّة فيها تكلّف؛ لأنّ المعيار ليس المقصود به درجة الإعلام؛ بل الإفهام، ولذلك أرى أنّ مصطلح العلماء العرب (الفائدة) أكثر دقّة من (الإعلاميّة) إلاّ إذا أخذنا بنظر الإعتبار نصوص الإعلانات، والأخبار، والتعليقات الصحفيّة، وغيرها ممّا يقع في هذا الإطار، أمّا النصوص الإبداعيّة فهذا المصطلح (الإعلاميّة) بعيد عن قياس مراتب الإبداع، وفي ضوء هذا أقول إنّ هذا المعيار لابدّ أن يؤخذ من زاوية أخرى، وأقصد (علم البيان) وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

وليست الإعلاميّة التي أرادها دي بوجراند ذات علاقة وثيقة بالبنى الجمليّة التي تنماز بالجماليّة، والتأثير في النفس، وإثارة الخيال، ولكنها ليست بعيدة عن إرادة شدّ الانتباه. وليس جديدًا أن أقول إنّ العدول في البنى من المتوقع إلى غير المتوقع هو من أعلى مراتب الجودة في النصّ، شرط أن تكون القرائن حاكمة في إيصال المراد من العدول بأقرب طريق (الخالدي، ٢٠١٧: ٢٨-٢٩).

وفي ضوء ما تقدّم أرى أنّ الضجّة التي يُحدثها اللسانيّون المعاصرون في تفخيم هذه المعايير، هي ضجّة مفتعلة. ومن تعمّق في دراسة النقد العربيّ القديم يجدْ أنّ هذه المعايير ربّما هي جديدة على الأوربيّين، والأمريكان، ولكنّها ليست بجديدة علينا، فقد تحدّث علماؤنا عنها، وعن غيرها، من المعايير التي وزنوا بها جودة النصّ الأدبي البليغ، وكانوا أكثرعمقًا في التفكير، والتأمل، والموازنة، والتحليل، والنظر في تلك النصوص؛ لكنّ قلّة اطلاع عدد من الباحثين المعاصرين من العرب لم تجعلهم قادرين على معرفة الكنوز النقديّة والبلاغيّة الكامنة في التراث العربيّ.

**ج) المعايير العربيّة وتطبيقاتها**

لاشك في أنّ الحديث عن المعايير العربيّة يشمل عدداً من المعايير التي أشرنا إليها في المبحثين السابقين ولذلك فلن أتحدّث عمّا مرّ ذكره وأقتصر على ما يكمّلها في العرض، مع ذكرتطبيقات لما لم يرد عليه تطبيق، وقد اخترت المعايير التي يمكن اعتمادها من أقوال حازم القرطاجنيّ التي شرحتها والدكتورة حميدة صالح البلداوي في كتابنا المشترك (قراءة لغويّة ونقديّة في الصحيفة السجّاديّة) وسأختار تطبيقاتي على هذه المعايير من كلّ من خطبتي السيدة فاطمة الزهراء

ويصدر عن قريحة» (القرطاجنّي، ١٩٦٦: ٢٠٠). ومَن يتأمّلْ في خطبتي السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام يجدْ مهارة في الوصف، والتصوير، لا تتاح إلاّ لمن وهبه الله (تعالى) القدرة الفائقة على تخيّل الصور الجميلة التي تقرّب المعنى. والخطبتان زاخرتان بتلك الصور سأقتصر على واحدة منها، في قولها عليها السلام :

«ظهر فيكم حسكةُ النفاق، وسَمَل جلبابُ الدين، ونطق كاظمُ الغاوين، ونبغ خاملُ الأقلّين، وهدر فنيقُ المبطلين، فخطر في عرصاتِكم، وأطلع الشيطانُ رأسَه من مغرزه، هاتفًا بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين... فوسمْتُم غيرَ إبلكم، ووردتُم غيرَ مشربِكم» (الطبرسي، ٢٠٠٨: ١١٥). في هذه اللوحة وصفت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام المنافقين والمرتدّين بصور باهرة، وظّفت لها الاستعارة في قولها عليها السلام : "ظهرت فيكم حسكة النفاق" وهي صورة للنفاق المدفون في صدورهم، وقد أظهروه بعد استشهاد أبيها صلى الله عليه وآله وسلم يخز المؤمنين كوخز الحسَكة، وهي نبتة ذات أشواك مؤلمة.

والصورة الثانية "سمل جلباب الدين" شبّهت عليها السلام الدين بالجلباب الذي يُلبس وينزع، وكأنّ الدين قد خلُق، وسمل، وعتق؛ لذا نزعه المنافقون والمرتدون بعد استشهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

والصورة الثالثة "نطق كاظم الغاوين" أي نطققوا بما كانوا يكظمونه ويخفونه في صدورهم، لكنّها جعلت المكظوم ينطق بلسان حالهم.

والصورة الرابعة والخامسة "فوسمتم غيرَ إبلكم، ووردتم غيرَ مشربكم".

وهما صورتان من أجمل الصور التي عبّرت بهما عليها السلام عن اغتصاب المخاطبين الخلافة من الإمام علي عليه السلام فكأنّهم بهذا الفعل الغادر، قد وضعوا

والصحيفة السجّاديّة وهذه المعايير:

**المعيار الأوّل: وجود الطبيعة الفنيّة ونشاط المخيّلة**

وعبّر عنه حازم القرطاجنّي بقوله: «القوة على التشبيه فيما لايجري على السجيّة، ولا يصدر عن قريحة، بما يجري على السجيّة الوشم، أو الوسم الذي يسِمون به الإبل التي يمتلكونها، على غير إبلهم؛ لأنّ الخلافة أمر إلهي، لم يعهده الله ولا رسوله ﷺ إليهم وليس لهم الخيَرة في ذلك.

أمّا قولها عليها السلام (ووردتم غيرَ مشربكم) فهومقابلة بين هذه الصورة والصورة التي قبلها، لمعنى واحد هو اغتصاب الخلافة، إذ شبّهت من يغتصب الخلافة التي لم يفوّضه الله تعالى بها، بمن يشربون الماء من غير موردهم الذي يحقّ لهم الشرب منه.

ومن التقابل الصوري عند الإمام زين العابدين عليه السلام قوله في دعائه: "اللهمّ اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف وأبرّهما برّ الأم الرؤوف" (علي بن الحسين، ٢٠٠٠: ١١٥).

**المعيارالثاني: امتلاك ناصية الوحدة في نسْج الخطاب**

ويُراد بذلك أنْ يكون النصّ وحدة متكاملة، يرتبط بعضُها ببعض، كأن أجزاء النصّ حلقاتٌ مترابطة، وفي وسطها عقد؛ لذا شبه حازم القرطاجنيّ وحدة النصّ بالعقد المفصّل وخطبة السيدة الزهراء عليها السلام وحدة مكونة من مقاطع:

الأول: الافتتاح بحمد الله تعالى.

الثاني: شهادة أنْ لا إله إلّا الله.

الثالث: شهادة أنّ محمدًا رسول الله.

الرابع: الخطاب الحجاجيّ في قولها عليها السلام: "أنتم عبادَ الله نصب أمره... زعمتم حقّا لكم، أ للهِ فيكم عهد، ونحن بقيّة استخلفها عليكم".

الخامس: الخطاب الفقهيّ والوعظيّ "فجعل الإيمان تطهيراً لكم من الشرك" إلى قولها: "وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبيّة".

السادس: خصوصيّة السيدة فاطمة الزهراء؛ كونها بنت رسول الله ﷺ وهو جوهر الخطاب «أيها الناس اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمد ﷺ ... لتصل إلى قضيّة من أهم القضايا التي اعترضت مسيرة الإسلام بقولها فوسمْتُم غيرَ إبلكم، ووردْتُم غيرَ مشربِكم». وتناقش مزاعمهم الباطلة "زعمتم خوف الفتنة" وهذا المقطع بؤرة الخطبة وجوهرها وهو بيت القصيد (الطبرسي، ٢٠٠٨: ١١٤-١١٦).

السابع: تتحدّث فيه عن حقها الشرعيّ، في امتلاك فدك، ويبدأ بقولها عليها السلام : "أيّها الناس أأغْلب على إرثي؟" *(المصدر نفسه، ١١٦)*.

الثامن: خطاب الأنصار، وتذكيرهم بما كانوا عليه، من نصرة آل النبي عليهم السلام لتنتهي إلى توبيخهم لتراجعهم عمّا كانوا عليه من نصرة، وارتداد عدد منهم بعد استشهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم *(المصدر نفسه، ١١٦-١١٩)*.

وهذه المقاطع تشكّل وحدة نصيّة متكاملة كالقلادة.

**المعيار الثالث: الانسجام**

وهو ما تحدّثنا عنه في توضيح مصطلح (الالتحام) بحسب ترجمة تمّام حسّان، وهو كا قلت يعني ارتباط معاني الجمل، واستمرارها الدلاليّ، وقد عبّر عنه حازم القرطاجنّي بأنّه يتمّ بوضع بعض الفصول، والمعاني، من بعض، بشكل أفضل بالنظر إلى أول الكلام، ومنعطفه، وخاتمته (القرطاجنّي، ٢٠٠٨: ٢٠٠) وقد قسمتُ أنواع الانسجام على أربعة هي: أ) الانسجام بين مقاطع النصّ ب) الانسجام بين المعاني ج) الانسجام بين الجمل د) الانسجام بين الألفاظ والأصوات. وقد فصّلتُ القول في تطبيقات هذه الأنواع في كتابي فيضة النفس، وأجتزئ بمثال واحد من الانسجام بين الجمل، في قول السيدة فاطمة عليها السلام :

"كشفَ عن القلوب بُهَمَها... وجلى عن الأبصار غُمَمها".

وقولها عليها السلام : "وهداهم إلى الدين القويم... وهداهم إلى الطريق المستقيم"

وقولها عليها السلام : "ولا أقولُ ما أقولُ غلطًا... ولا أفعلُ ما أفعلُ شططًا"

**المعيار الرابع: الشموليّة والاستقصاء**

ويُقصد به عرض المعاني عرضًا متكاملاً، من كلّ جوانبها من غير إخلال، أو نقص، وبترتيب متوافق. وقد قسمتُ الشموليّة على خمسة وجوه:

الوجه الأول: الشموليّة في تتابع المعاني وتكاملها، في المقطع الواحد.

الوجه الثاني: الشموليّة في استيعاب الزمن.

الوجه الثالث: الشموليّة في تنويع جنس المخاطبين.

الوجه الرابع: الشموليّة في تنوّع موضوعات الخطبة.

الوجه الخامس: الشموليّة في سعة استيعاب معاني القرآن الكريم.

وأعرض من خطبة السيدة الزهراء عليها السلام وجهاً واحدًا هو الشموليّة في استيعاب الزمن: فهي عليها السلام في الوقت الذي عالجت فيه قضايا الزمن الحاضر، من خلال استنكارها انحرافَ القوم، وانقلابَ أكثرهم على أعقابهم، ونكرانهم العهد؛ الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للإمام عليّ عليه السلام بأخذ البيعة له في إمامة المسلمين، تنتقل إلى الزمن الماضي؛ لتذكّرهم بما كانوا عليه في الجاهليّة من فقر، وخوف، وتشتّت، وضياع، مذكرة بقوله تعالى: (وكنتم على شفا حفرة من النار) (آل عمران: ١٠٣) قائلةً: "مذقة الشارب، ونُهزة الطامع، وقَبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القدّ، أذلةً خاسئين" (الطبرسي، ٢٠٠٨: ١١٥).

لتربط ذلك بـ(الزمن المستقبل) وهي تستشرف الأحداث القادمة، وما سيجري عليهم على أيدي حكام قساة، جفاة، مستبدّين، يرون على أيديهم ألوان العذاب، بقولها في الخطبة الأخرى، متنبئةً بما سيحدث لهم في المستقبل، بعبارات بليغة: «أما لعمري لقد لقحت، فنظرةً ريثما تنتج، ، ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً، وذعافاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون» (الخالدي، ٢٠١٧: ٧١-٧٢؛ الطبرسي، ٢٠٠٨: ١١٥-١٢١).

**المعيار الخامس: التناسب**

ويُقصد به أن تكون أجزاء الكلام متناسبة، أي أنّ بعضها يناسب الآخر؛ فيوافقه لذا قال حازم القرطاجني: «كلّما وردت أنواع الشيء، وضروبُه، مترتبةً على نظام وتشاكل، وتأليف متناسب، فإنّ ذلك أدعى لتعجّب النفس، وإيلاعها» (القرطاجنّي، ١٩٦٦: ٢٤٥).

والتناسب يقترب من مفهوم الانسجام؛ ولكنّه يُعنى بتأليف الكلام، بطريقة تثير التعجب في النفس.

ولا يقتصر التناسب على الألفاظ، ولا على المعاني؛ بل يمتدّ إلى الأساليب، والبراهين، التي تدحض الحجج، ومن ذلك مواءمة الأساليب للقصد، ويظهر ذلك في توظيف الاستفهام الإنكاريّ في ردّ الإدعاءات؛ لكشف بطلانها. ففي حديثها عن النكوص، والانقلاب؛ الذي أحدثته قريش، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم لـمّا يُقبر، والجرحُ لما يندمل، فاجأتهم بوهن حجّتهم بقولها: "ابتدارًا زعمْتم خوفَ الفتنة". بردّها بآية كريمة، لتمتلك زمام المبادرة في الحجاج مستشهدة بقوله تعالى: ﴿**أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ (التوبة/٤٩) وتواجههم بعدد من الاستفهامات التي تعلمُ أنّهم غير قادرين على الإجابة عنها، بعد أنْ أبعدت وجاهة حجتهم بقولها: "فهيهات منكم" لتكون الأسئلة إنكاريّة، مؤلمة للمخاطبين، لأنّها تناسب كلامَها بقول الله تعالى: "وكيف بكم؟ وأنّى تُؤفكون؟" وحين تصل إلى وصف القرآن الكريم يتغيّر نسق كلامها ليناسب قدسيّة القرآن الكريم "أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة".

لتبدأ باستفهامين إنكاريّين آخرين، بعد توبيخهم بالابتعاد عن القرآن الكريم، وهو الحكم الفصل في الأمور "قد خلفتموه وراء ظهوركم" وهو اتهام دامغ لتناسب ذلك بالاستفهام الذي لا جواب له "أ رغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ فانظر إلى التناسب بين قولها عن موقفهم من القرآن الكريم: "قد خلفتموه وراء ظهوركم". وبين ما يترتب على ذلك من أمور، لا يستطيع المؤمن تحمّل وزرها "أرغبة عنه تريدون" (الخالدي، ٢٠١٧: ٧٣-٧٩).

**المعيار السادس: حسن الائتلاف**

ويُراد به وضع الألفاظ في مواضعها، وعبّر عنه حازم القرطاجنيّ بقوله: «بائتلاف الكلم من حروف صقيلة، وتشاكل يقع بين الألفاظ» (القرطاجنّي، ١٩٦٦: ٢٢٧). وهذا المعيار معروف ومتداول، بين النحويّين والبلاغيّين والنقّاد العرب القدماء. قال المبرّد في النصّ الذي مرّ بنا: «إنّ حقّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها، وأن يُقرّب بها البعيد وأن يُحذف منها الفضول» (المبرّد، لا تا: ٥٩).

وهذا المعيار يقترب تمامًا من معيار السبْك، وفي خطبتي السيدة الزهراء عليها السلام نصوص يتجلّى فيها هذا المعيار؛ فهي تختار الألفاظ، لتضعها في الموضع المناسب، ففي بيان حكمة الله من الفروض، والأحكام، والأصول، والفروع، تختار عليها السلام الألفاظ المناسبة لمعنى الفرض، وتربط الجمل كلّها بخيط واحد، بجعلها مفعولات لفعل واحد، هو (فجعل الله) لتكون هذه الجملة نصّا متناميًا، لا ينقطع بعضه عن بعض، ويكون اختيار المفعول الثاني اختياراً حاذقاً، ليجانس المفعول الأول:

جعل --- ( الإيمان تطهيراً)

ويستمر الترابط بين (جعل) وما بعدها من المفعولات فيما بعد، كقولها عليها السلام :

(الصلاةَ تنزيهًا لكم من الكبْر)

وانظر إلى اختيار لفظة (التزكية) و(النماء) تجدْ أنّهما كانتا تعليلاً للزكاة، فما يُخرجه المرءُ من مالِه الذي قال عنه تعالى (وتحبون المال حبّا جمّا) (الفجر: ٢٠) يزكّي النفسَ من الطمع، والجشع، وحبّ المال. وقد جاءت لفظة (تزكية) مؤتلفة مع (الزكاة) لفظاً ومعنى، لتصل إلى ما يُريح النفسَ، ويُشيع الطمأنينة فيها؛ لأنّ الزكاة لاتنقصُ الثروة؛ بل يزيدها الله تعالى، فقالت عليها السلام : مع استمرار أثر الفعل السابق(جعل) "والزكاةَ نماءً في الرزق" وهكذا تمضي في اختيارها الألفاظ الأخرى التي وضعت في مواضعها المناسبة لفظاً ومعنى.

**المعيارالسابع: الاتّزان**

يوضّح حازم القرطاجنيّ هذا المعيار بقوله: «القوة على التخيّل في تسيير تلك العبارات متزنة، وبناء مباديها على نهاياتها، ونهاياتها على مباديها» (القرطاجنّي، ١٩٦٦: ٢٠٠).

وهو معيار ذوقيّ يتوخى في النصّ الأدبي مراعاة التوزيع المترابط، لجمل النصّ ومعانيه، بحيث تكون الأفكار مترابطة، والجمل متتابعة، ويكون لأوّلها علاقة بآخرها، ويكون لآخرها ارتباط بأولها، بحيث تكون المقاطع متتابعة، يشدّ بعضُها أزرَ بعض، ليكون المخاطب بإزاء سلسلة مترابطة من الجمل والمقاطع، وهذا يتطلّب إيجاد الروابط بين مكونات النصّ، كحروف العطف، والضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، فضلاً عن وحدة المعنى؛ التي تتطلّب تجانساً في الأفكار، وتتابعاً للصور. وأرى أنّ الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام قد عرضت أمثلة حيّة لهذا الاتزان في خطبتيها؛ بل أعدّ الخطبتين تجسيداً حيّاً للاتّزان في التأليف، والمعاني.

فلو عدنا إلى المقاطع الثلاثة الأولى؛ التي تتناول الحمدَ، والتوحيد، والنبوّة، لوجدنا عباراتها قد بُنيت بداياتُها لتُكمل نهاياتها، وتذكّر نهاياتُها ببداياتها (انظر: الخالدي، ٢٠١٧: ٩٠-٩٤).

**المعيار الثامن: التدرّج والتنامي**

وهو معيار أشار إليه حازم القرطاجنيّ بقوله: «الالتفات من حيّز إلى حيّز، والخروج منه إليه، والتوصّل إليه» (القرطاجنّي، ١٩٦٦: ٢٠٠). وقد قسّمته على أربعة أنواع هي:

أ) التدرّج في إيصال المضامين التي تضمّنتها كلّ خطبة إلى المخاطب، وأريد به التدرج في عرض الأفكار والمضامين، وإيصالها إلى المخاطب بيسر لاستساغتها وفهمها وتقبّلها وهذا واضح في المقاطع كلّها؛ فهي تتدرّج من مقطع إلى آخر، حتى تبلغ الغاية التي تريد الوصول إليها، من بَدء بالافتتاح، والشهادتين، وتبيين علل الأحكام، ومخاطبة قريش، وتفنيد ادعاءاتهم، ثمّ مخاطبة الأنصار لمعاتبتهم، وتقريعهم على مواقفهم. وتصل قمّة التنامي في الأفكار حين تتحدّث عن الإمامة، وقضية الإنقلاب على الأعقاب في نكران بيعة الغدير.

ب) التدرّج في تفصيل الفكرة الواحدة: وذلك بتشقيق الفكرة، وتقسيمها، ومن ذلك ردّ السيدة فاطمة على مزاعم قريش ومنها قولهم: (مات محمد) قالت عليها السلام : «أتقولون مات محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم فخطبٌ جليلٌ، استوسع وهنه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكُسفت الشمس والقمر، وانتثرت النجومُ لمصيبته، وأكدتِ الآمالُ، وخشعتِ الجبالُ، وأضيع الحريم، وأزيلتِ الحُرمَة عند مماته، وتلك والله النازلةُ الكبرى، والمصيبةُ العظمى،

لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتابُ الله (جلّ ثناؤه) في أفنيتكم، وفي ممساكم، ومصبحكم، يهتف في أفنيتكم هتافاً، وصراخاً، وتلاوةً، وألحاناً، ولقَبلَه ما حلّ بأنبياء الله، ورسله، حكمٌ فصْلٌ، وقضاءٌ حتمٌ» (الطبرسي، ٢٠٠٨: ١١٦). ألا ترى في هذا الردّ من الأفكار المتنامية والمتصاعدة ما يُلجم المنكر.

ت) التدرّج في صياغة الجمل: وتلك قدرة لا يمتلكها إلا من امتلك ناصية البيان، ففي جوابها عليها السلام على استفهام انكاريّ "وما الذي نقموا من أبي حسنٍ؟"

عرضته ثم أجابت عنه قائلةً: "نقموا منه نكير سيفه، وقلّة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمّره في ذات الله" (المصدر نفسه: ١٢٠). فالجملة (نقموا) من الفعل والفاعل لها مفعول به هو (نكير) المضاف إلى سيفه، وقد اتسعت الصدّيقة في بيان ما أُتْبع على هذا المفعول بغية التفصيل، والتدرّج في إيصال المعاني، فعطفت على (نكير سيفه) ما تلاه من معطوفات.

ث) التدرّج في إثارة نفسيّة المخاطب، والوصول إلى إقناعه: وهذا التدرّج المؤثر في النفس نابع من إثارات نفسيّة، تعقبها ردود فعل، ويتجلّى ذلك في كلامها للأنصار حيث قالت عليها السلام "إيهًا بني قَيلة أ أُهْضَمُ تراثَ أبي، وأنتم بمرأى منّي ومسمع، ومنتدى ومَجْمَع؟ تلبسكم الدعوة، وتشملكم الحيرة، وأنتم ذوو العدد والعُدّة، والأداة والقوّة، وعندكم السلاح والجُنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبةُ التي انتُخِبت، والخِيرةُ التي اختيرت لنا -أهلَ البيت- قاتلتُم العرب، وتحمّلتم الكدّ والتعب، وناطحتُم الأمم..." (المصدر نفسه: ١١٧). وهكذا تستمر بهذا الخطاب الهادئ الذي فيه تذكير، ومدح، لما كانوا عليه قبل الإنقلاب؛ لكنّ لهجة الخطاب تتصاعد، وتتنامى في قولها عليها السلام : «حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حَلْب الأيام... فأنّى حِرتم بعد البيان، وأسرَرْتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتُم بعد الإيمان». ثمّ تشتدّ حدّة الذم، والتوبيخ في قولها: «بؤسًا لقومٍ ﴿**نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أوّل مرّة أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إنْ كُنتم مؤمنين**﴾ (التوبة/١٣)» *(المصدر نفسه: ١١٧)*.

ثم تتصاعد موجات التوبيخ قائلةً: «ألا وقد أرى أنْ قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة، ونجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوّغتم» *(المصدر نفسه: ١١٧* ؛ الخالدي، ٢٠٠٨: ٩٤-١٠١). فهذه العبارات تسمهم بالانقلاب على أعقابهم.

**المعيار التاسع: أن يكون الكلام مُحْكمًا**

ويراد بالمحكم هنا الربط المحكم بين جملة وأخرى، وأهم أدواته العطف، وهذا المعيار ذو علاقة بمعيار (السبك) الذي تحدّث عنه دي بوجراند، وقد عبّر حازم القرطاجنّي عن هذا المعيار بقوله: «إنّ العرب انتهت من إحكام الصنعة الجديرة بالتأثير في النفوس، إلى ما لم تنته إليه أمّة من الأمم، وإنّهم اتخذوا الكلام المحكم، نظمًا، ونثرًا، للوعظ والحضّ على المصالح» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٢٢).

وأرى أنّ موضوع الربط بآليّاته المختلفة، العطف، والوصل، وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وربط جواب الشرط بالفاء وإذا، وعود الضمير، وغيرها من الآليّات، أوضح من أنْ أتّسع فيه؛ لذا أكتفي بآلية واحدة هي العطف في قول السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام : «جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدُها، وتفاوت عن الإدراك أبدها» وربطت عليها السلام فأحكمت الربط بالفاء في قولها: «فأنقذكم الله -تبارك وتعالى- بمحمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم بعد اللتيا والتي» (الطبرسي، ٢٠٠٨: ١١٥).

ومن ذلك الربط باللام في قولها عليها السلام : «وتالله لو مالوا عن المحجّة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة (لردّهم) إليها، وحملهم عليها، و(لسار) بهم سيراً سُجحا... و(لأوردهم) منهلاً نميراً... و(لأصدرهم) بطاناً» *(المصدر نفسه: ١٢٠)*. وهذه الأمثلة غيض من فيض.

**المعيار العاشر: مهارة الانتقاء**

ويُراد بهذا المعيار الملكة النقديّة لدى المنشئ التي تمكّنه من اختيار ألفاظه، وجمله، ومقاطع كلامه، لتناسب الغرض الذي قيل فيه الكلام، ومن هذا الاختيار تظهر جماليّة النص، وحسن الكلام، وكثرة وجوهه البيانيّة، والبديعيّة، والمعنويّة، التي تؤثّر في السامع قال حازم القرطاجنّي عن مهارة الانتقاء:

وهي «القوّة المائزة حسنَ الكلام، من قبيحه، بالنسبة إلى نفس الكلام، وبالنسبة إلى الموضع الموقَعِ فيه الكلام» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٠٠).

وأستطيع أن أقول إنّ كلّ كلمة في خطبتي السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وكلّ جملة فيهما، وكلّ صورة، وكلّ معنى، وكلّ أسلوب من أساليب التعبير، وكلّ مقطع، وكلّ طريق في توجيه الخطاب، قد انتقته السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام انتقاءً في ضوء قدرات خطابية عجيبة، ومهارات لغويّة، وأسلوبيّة، كانت السيدة الزهراء عليها السلام قد ورثتها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتعلمتها من القرآن الكريم، ومن البيأة التي عاشت فيها، في بيت زوجها بليغ العرب، الإمام علي عليه السلام فصارت تجيد الاختيار، والانتقاء، والدليل على ذلك الخطبتان بكل مكوناتهما المتماسكة.

### النتيجة

وفي الختام أرى أنّ هذه المعايير إذا وجدتِ المناخ الملائم للفهم، والاتساع، ستكون أكثر ملاءمة ممّا تداوله الباحثون من تفصيلات، وتطبيقات، لمعايير دي بوجراند التي تذوب في هذه المعايير، وتتلاشى؛ لأنّها إمّا مأخوذة منها، أو في أحسن الأحوال مقاربة للمعايير العربيّة، وتنقص عنها في كثير من الأمور فلا ترتقي إلى سعتها وشموليتها، ودقّتها، وقدرتها على وضع النصوص في موازينها الصحيحة.

## المصادر والمراجع


١. ابن طباطبا، محمد أحمد العلوي (٢٠٠٥). ***عيار الشعر***. شرح وتحقيق عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢. الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر (١٩٤٤). ***الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي***. حقق أصوله وعلّق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد.

٣. بارت، رولان (١٩٩٢). ***لذة النص***. ترجمة منذر عيّاشي، حلب: مركز الإنماء الحضاري.

٤. برينكر، كلاوس (٢٠٠٥). ***التحليل اللغوي للنصّ مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج***. ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.

٥. بوجراند، روبرت دي (١٩٩٨). ***النص والخطاب والإجراء***. ترجمة تمّام حسّان، القاهرة: عالم الكتب.

٦. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي (١٩٩٢). ***دلائل الإعجاز***. قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، ط٣، القاهرة: شركة القدس للنشر والتوزيع.

٧. الخالدي، كريم حسين ناصح (٢٠١٧). «***فيضة النفس دراسة نصّية عربيّة في ضوء لسانيات النصّ***». الأردن: دار الرضوان للنشر والتوزيع.

٨. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٩٧٧). ***الكتاب***. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط٢، القاهرة: مكتبة الخانجي.

٩. الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي (٢٠٠٨). ***الاحتجاج مناظرات وخطب واحتجاجات ومفاخرات الرسول المصطفى وأهل بيته*** عليهم السلام. بيروت: دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع.

١٠. العسكري، أبوهلال (١٩٥٩). ***كتاب الصناعتين الكتابة والشعر***. تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة.

١١. علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٢٠٠٠). ***الصحيفة السجادية الكاملة***. تقديم: محمد باقر الصدر، بيروت: دار التيار الجديد.

١٢. فان دايك، تون أ (٢٠٠٥). ***علم النص مدخل متداخل الاختصاصات***. ترجمة سعيد حسن بحيري، ط٣، القاهرة: دار القاهرة.

١٣. القرطاجنّي، حازم بن محمد (١٩٦٦). ***منهاج البلغاء وسراج الأدباء***. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس.

١٤. قدامة بن جعفر، أبو الفرج (١٩٦٣). ***نقد الشعر***. تحقيق كمال مصطفى. القاهرة.

١٥. المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (لا تا). ***البلاغة***. تحقيق رمضان عبد التواب. القاهرة: دار مطابع الشعب.

١٦. وارزنياك، زتسيسلاف (٢٠١٠). ***مدخل إلى علم النصّ مشكلات بناء النص***. ترجمة سعيد حسن بحيري، ط٢، القاهرة: مؤسسة المختار.

# Text Criteria between Arabic Traditional Criticism and Modern Linguistic Studies

**Kareem Hussain al-Khalidi***

*Professor in Baghdad University & the Chief of Iraqi Translators Association, Iraq*

## Abstract

The inquiry balances between western critics' attitudes toward text evaluation which is summarized by De Beograd in seven criteria and Arabic and Muslims ones which prove that the majority of seven criteria is studied and talked in details by Arabic traditional critics. The study poses some examples of this agreement between western concepts and idioms themselves and those studied by Arabic critics. The study represents Text criteria for old Arabic critic, Hazim al-Qurtajanni, who as a researcher has used applications to those criteria in his book, Faidhat al-Nafs, Arabic textual study in the shade of textual linguistic. The study represents the evaluation of western Text criteria meanwhile it poses the Arabic and Muslim's critics' thoughts. The study looks objectively at each western criterion and its relation with old Arabic one which is established to evaluate texts, poetry and prose. The study distinguishes between texts which the western criteria are based on and texts which Arabic ones are. Because of that, the inquiry poses modern Arabic work in contemporary linguistics to prove Arabic researcher's ability in accompany by research progress of modern linguistic studies.

## Keywords

Arabic Traditional Criticism, Hazim al-Qurtaganni, Linguistics, Text Criteria.

* **Corresponding Author, Email:** kareemauthman@yahoo.com